خطبة صلاة الجمعة 10/3/2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم التقرب إلى الله تعالى)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم التقرب إلى الله تعالى**

لخليل أب مقعد محتاج إلى ولده أشد الحاجة، إذ لا يجد غيره معيناً، ولكن خليل قرر أن يعتكف في المسجد خلال أيام شهر رمضان القادم ليتزود من القرآن والقيام والذكر تقرباً لله تعالى.

ترى هل عمل خليل هذا يقربه من الله زلفى، ما المفهوم الصحيح للتقرب إلى الله تعالى؟

يخطط ممدوح ذو الأربعين عاماً للذهاب للحج في هذا العام تقرباً إلى الله تعالى، ومع أنه لا يسد حاجات أسرته المادية لقلة ذات يده فقد اقتطع من دخله ليجمع المبلغ المطلوب للحج، علماً أنه لن يستطيع تأمين نفقات أسرته في أثناء سفره.

ترى هل عمل ممدوح هذا يقربه من الله زلفى، ما المفهوم الصحيح للتقرب إلى الله تعالى؟

لا يكترث جلال لمصدر ماله أمن حلال جاء أو من حرام، ولا يهتم لأداء فرائضه في أوقاتها، ولكنه كلما شعر ضيقاً في صدره وقبضاً في قلبه فزع إلى المساجد للصلاة والذكر والدعاء يريد بذلك على قوله تقرباً إلى الله ليرفع عنه ما يجد.

ترى هل صحيح أن المرء يتقرب إلى الله بمثل هذا، ولو بقي مقيماً على أكل الحرام غير مكترث بالفرائض، ما المفهوم الصحيح للتقرب إلى الله تعالى؟

ترى صديقة رباب في كلِّ حين رؤيا فتقع أحداثها بعد يوم أو يومين كما رأتها في المنام، بالأمس أخبرتها أنها ستأتيها مفاجأة سارة في وقت قريب فقد رأت في منامها ذلك، وبالفعل علمت رباب اليوم بأنها حامل وسيرزقها الله مولودها الأول، ومع علم رباب بترك صاحبتها للفرائض وإصرارها على بعض المعاصي فقد غدت تعتقد أن صديقتها قريبة من الله تعالى مفتوح عليها بشيء من علوم الغيب.

ترى هل صحيح أن الله تعالى يقرب إليه تاركي الفرائض المصرين على المعاصي، ويفتح عليهم ما لا يفتح به على غيرهم، ما المفهوم الصحيح للتقرب إلى الله تعالى؟

أيها الإخوة:

التقرب إلى الله تعالى عادة الصالحين وغاية العباد الموفقين، ولا يزال العبد يتقرب إلى ربه بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى حتى يلقى الله وهو أقرب ما يكون إليه، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19]، قال المفسرون أي صلِّ لله تعالى وتقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة.

روى أبو داود عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»**.

وأخرج البخاري حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«قال الله تعالى: من عادى لي وَلِيّاً، فقد آذَنتُه بحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِنْ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببتُهُ كُنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألَني أعْطَيتُه، وإن استعَاذَ بي أعَذْتُه»**.

فلا يزال الموفقون من عباد الله الصالحين يبغون التقرب من الله تعالى طلباً لرضاه، لكنا لا نعلم طريقاً يقربنا من الله تعالى إلا شرعه فما فرض فرضناه وما استحب استحببناه وما أباح أبحناه وما كره كرهناه وما حرم حرمناه، ومهما خالف المرء ذلك بأن حرم الحلال أو أحل الحرام أو كره المستحب أو استحب المكروه فهو بعيد عن الله. ولو طار في الهواء أو مشى على الماء.

ومن أجل هذا كان الواجب على من يريد التقرب إلى الله تعالى أن يتعلم أمره ونهيه، وإلا فكيف يتقي من لا يعلم ماذا يتقي، وكيف يرتقي من لا يعلم كيف يرتقي!

فالعلم مقدَّم على العمل، والعلم إمام والعمل تابع، وعالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ.

عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً عنونه بقوله: "باب العلم قبل القول والعمل". وقال شُراح البخاري: أراد أنَّ العلم شرطٌ في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلَّا به فهو مقدَّمٌ عليهما.

قال الإمام الحسن البصري: (العامل على غير علمٍ كالسَّالك على غير طريق، والعامل على غير علمٍ يفسد أكثر ممَّا يصلح، اطلبوا العلم طلباً لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضرُّ بالعلم فإنَّ أقواماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتَّى خرجوا بأسيافهم على أمَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلُّهم على ما فعلوه).

فمن أراد أن يتقرب إلى الله تعالى فليتعلم أوامر الشرع ونواهيه ثم ليعمل بها.

ثم من أراد التقرب إلى الله تعالى فليقدم ما قدمه الله وليؤخر ما أخره، فمن ذلك أن الفرض مقدم على النفل، إذ المأمور به في الشَّرع نوعان:

مأمورٌ أُمِرَ به على سبيل الوجوب والإلزام وهذا يسمَّى فرضاً وواجباً، أو مأمورٌ به على سبيل الاستحباب وهذا يسمَّى سنةً.

وتأمرنا الشريعة بتقديم الأوجب على الواجب، والواجب على المسنون.

ومن عكس الأمر أخطأ ولم يصح تقربُه من ربه، ومن هنا يظهر خطأ أناسٍ تشغلهم السنن والتطوعات عن الفرائض والواجبات.

انشغَلوا بكثرة صلاة النَّافلة وصوم النَّافلة وحجِّ النَّافلة وتركوا برَّ الوالدين ورعاية الزَّوج والأولاد.

برُّ الوالدين فرضٌ، وصلاة قيام اللَّيل سنةٌ، والفرض مقدَّمٌ على السُّنة.

رعاية الزَّوجة فرضٌ، وتكرار الذَّهاب إلى العمرة سنةٌ، والفرض مقدَّمٌ على السُّنة.

تربية الأولاد فرضٌ، والذَّهاب إلى الحجِّ بعد حجِّ الفريضة سنَّةٌ، والفرض مقدَّمٌ على السُّنة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ –أي: تطوعاً– وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**» [البخاري] فلا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها؛ لأنَّ حقَّه عليها أوجب من صوم النَّافلة.

تنشغل بعض النِّساء الصَّالحات عن حقوق أزواجهنَّ أو رعاية أولادهنَّ بمتابعة ختمات القرآن والأوراد، فهؤلاء انصرفنَّ عن الواجب إلى السُّنة.

رعاية الأولاد واجبٌ، رعاية الزَّوج واجبٌ، وهو مقدَّمٌ على النَّافلة.

سأل عمر رضي الله عنه عن رجل غاب عند صلاة الفجر، فقيل له: لقد قام الليل كله ونام عن صلاة الفجر، فقال عمر ليته نام الليل كله وحضر معنا الصلاة.

ذلك لأن الفرض مقدم على النفل.

فمن أراد أن يتقرب إلى الله تعالى فليلزم شرعه، ومن أراد أن يلزم شرعه فليتعلم أوامر الشرع ونواهيه. ثم ليقدم ما قدمه الله وليؤخر ما أخره.

وبناء على كل ما سبق:

لم يصب خليل عندما ترك أباه المقعد ذا الحاجة إليه واعتكف في المسجد؛ لأن الاعتكاف سنة وخدمة الأب إذا تعين واجبة، والواجب مقدم على المندوب وتقربه إلى ربه بالواجب أحب إلى الله تعالى وأرضى من تقربه بالمستحب.

وكذلك لم يصب ممدوح بذهابه للحج وترك أهله من دون نفقه، إذ إن الله تعالى فرض الحج على المستطيع، ومن الاستطاعة نفقة من تلزمه نفقتهم كما قاله جمهور الفقهاء.

وإذا أراد جلال التقرب إلى الله تعالى ودوام الخير والبركة فعليه بتصفية ماله من الشوائب والأكدار ولزوم ما أمر الله تعالى به، وبعد ذلك ليمضي إلى المسجد تالياً داعياً متنفلاً.

وليست صديقة رؤى بمقربة من الله تعالى ما دامت تاركة للفرائض مصرة على المعاصي، ولو رأت من المنامات ما رأت فقد قال الصالحون: إذا رأيت الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تعجب له حتى ترى كيف هو عند أمر الله ونهيه، فإن كان ملتزماً بها منضبطاً فهو القريب، وإن لا فلا.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

1- التقرب إلى الله تعالى غاية الصالحين وعادة العبّاد الموفقين، ولا يزال العبد الصالح يتقرب إلى ربه بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى حتى يلقى الله وهو أقرب ما يكون إليه.

2- لا نعلم طريقاً يقرّبنا من الله تعالى إلا شرعه، فما فرض فرضناه وما استحب استحببناه وما أباح أبحناه وما كره كرهناه وما حرم حرمناه.

3- الواجب على من يريد التقرب إلى الله تعالى أن يتعلم أمر الله ونهيه، فالعلم مقدَّم على العمل.

4- من أراد التقرب إلى الله تعالى فليقدم ما قدمه الله وليؤخر ما أخره، فمن ذلك تقديم الفرض على النفل.

5- من لم يلتزم شرع الله فليس بقريبٍ منه، ولو طار في الهواء ومشى على الماء.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم التقرب إلى الله تعالى، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين